

اتجاهات التعليم العمومي بالمغرب في العشر سنوات الأولى من الحماية

ذ جورج هاردي
* ترجمة أمينة بريدعة*

إن التعلـــيم في المغرب مؤسسة قديمة، بل هي أقدم من الطرقات، فالإسلام أحـــدث ازدهـــارا مذهلا من المدارس الكبيرة والصغيرة. وقد نظر السلاطين بصفة عامة إلى تنمية هذه المدارس وصيانتها، واعتبروا ذلك من أوائل واجباتهم، وقد بقي هذا التعليم التقليدي حيا إلى اليوم بدرجة متفردة. فها هي المدارس القرآنية الصغيرة (الكتاتيـــب) حيث يحفظ الأطفال القرآن والمبادئ الأولية للعربية الفصحى عن ظهر قلـــب، ونجـــد ذلـــك فـــي ظل الأحياء القديمة في المدن وحتى تحت خيام القرى الـــرعوية، وها هي في أعلى درجات السلم المدرسي تستقر الجامعات في الجوامع خاصـــة فـــي فـــاس مـــثل جامعة القرويين المشهورة والتي كانت تمثل في العصر الوســـيط عند العالم الإسلامي ما كانت تمثله جامعة باريس بالنسبة للعالم المسيحي، نجـــد هـــنا كـــل الصور التي تستدعي إلى الذهن ماضي حياتنا المدرسية: حجرات الدرس حيث أن الشمس عنصرا دخيلا، معلمون شيوخ تتعهدهم الجماعة، متعلمون يرتلون جماعة وينزل عليهم من حين لآخر قضيب طويل (مشماط)، أطباء

* باحثة من الرباط

مزيفون، طلبة متضورون جوعا، حفلات طريفة وباذخة حيث يكون المناخ ملائما لـــيمارس الشباب شغبه ومجونه ... حتى ليظن المرء أننا حقيقة في سبعة أو ثمانية قرون إلى الوراء عند منحدرات جبال سانت جونوفييف Sainte Geneviève.

إن هـــذا التعلـــيم الـــذي يرتبط بالدين بشكل كبير – كما هو الحال بالنسبة للمؤسســـات بالمغـــرب – يهـــم الجميع، إذ لا أحد يفكر في الشك في فائدته، كما لا تســـتنكف العائلـــة عن إرسال ابنها إلى المدرسة إلا إذا كانت تعيش في فقر مدقع، فالقضـــايا المدرسية لها دائما مكانها في المطالب الجماعية، وفي مداولات المجالس القـــروية، وفـــي خطـــب الوزراء، أي أن لها مكانة كبيرة جدا، وتتطابق مع هموم صـــادقة جـــدا. في هذا الميدان إذن، لم نخترع شيئا ولم نجلب شيئا جديدا، على أي حـــال. ومـــن جهـــة مبدأ التعليم فإننا واصلنا العمل، وهذا هو الميزة الكبرى، لكن مهمتنا معقدة جدا بالمقارنة مع التعليم التقليدي، كيف ؟

أولا، إذا درســـنا نحن أيضا القرآن واللغة العربية فإننا لن ندرس ذلك فقط، كما أن المغاربة أيضا متعجلون كثيرا للأخذ بما هو جديد، بل يترجوننا لكي نعلمهم شيئا آخر.

إن الصـــبية، الذيـــن يعـــبرون في كل الاتجاهات منذ حوالي الثامنة صباحا بـــأنف أحمر والكتب فوق ظهورهم، إذا طلبت منهم أن يذكروا أسماءهم، فلن تلبث أن تلاحـــظ علـــى أنهـــا ليست كلها محمد وعمر أو إدريس، فهؤلاء يسمون العزار ورابيـــي، وأولـــئك كامـــيوس ورودريكز وكاسللي، وهؤلا الآخرون جان دوراندو، وبول مارتان، بصفة عامة، فنحن أمام مجموعة من التلاميذ مميزين جدا:

- الأهالـــي، بحصـــر المعنى، أي المغاربة المسلمين الذين يسكنون المدن القديمة وقرى البادية.
- اليهود المغاربة المحصورون في الأزقة الضيقة للملاح.
- الأجانـــب (الإســـبان وخاصـــة الإيطاليون) الذين أتوا إلى المغرب بحثا عن الإثراء، والذين لم يستقروا في المغرب إلا لأجل هذا.

وأخيرا فرنسيو فرنسا.

يظهـــر إذن، أنـــه مـــن الصعب جدا – على الأقل في الوقت الحالي – أن نتمكـــن مـــن إعطـــاء هـــذه المجموعات المختلفة من الأطفال نفس التغذية الفكرية والأخلاقـــية، فمـــنطلقاتهم تختلف، ولا يمشون بنفس الخطوات، كما لا يرمون إلى نفـــس الأهداف، وندرك جيدا، أنه كلما تركنا لكل واحد منهم إيقاع نشاط خاص به، فســـنكون قادريـــن على أن نجعلهم يساهمون كلهم في هذه المهمة العامة التي هي ازدهـــار مغـــرب فرنسي قوي. يوجد إذن بالمغرب من المشاكل المدرسية مقدار ما يوجد من الأجناس المدرسية، فنحن في العمق وبحق، أمام وجبة عائلية، ولكن وجبة بموائـــد صغيرة موزعة هنا وهناك. إن تعليم المسلمين وكما يجب أن ننتظر منه هو ذلك التعليم الذي فرض وما زال يفرض مجهودا كبيرا للتكييف، وبصفة عامة، يظن أصـــحاب العقـــول التبسيطية وكذلك الاستعماريون في غرفهم وحجراتهم، أن تعليم الأهالـــي كـــيفما كانوا، يجب أن يقتصر على هذه الصيغة وهي: تعليم مهني. ونرى جيدا أن كلمة الأهالي هذه لا تعني لهم شيئا كثيرا، كما نرى، أنهم يجهلون كل شيء عن المجتمعات التي اضطلعنا بالوصاية عليها، والتي هي في الغالب معقدة جدا.

وكمـــا هـــو معلـــوم، فالتعلـــيم في المغرب بمعناه الشعبي،له قبل كل شيء اتجاهـــات عملية. ففيما يتعلق بالتعليم العمومي، ينحصر هذا التعليم في مبادئ، كما يشـــكل جزءا متواضعا في دروس القرآن، وفي المراكز الحضرية ينحصر في اللغة العربـــية، إن نشاطه الأساسي مخصص للتوجيه المهني وما قبل التعلم، إننا نقول ما قـــبل الـــتعلم وليس التعلم أبدا، لأنه سيكون من المضحك أن نحول أطفالا أعمارهم عشـــر سنوات إلى متعلمين فلاحين أو حدادين، سنكتفي إلى حد ما ، بوضع الطفل فـــي الجـــو المهني الذي يكون قادرا على ممارسته وذلك بتخصيص برامج لدروس الأشـــياء والحســـاب ... وســـنبقيه ما أمكن في الوسط المهني الذي أخذناه منه عن طريق أعمال تطبيقية في متناول إدراكه ومقاومته الجسمانية.

بهـــذا المعـــنى، فمدارســـنا الابتدائـــية في المدن هي مدارس تهيء للتعلم الصـــناعي، وملحقات بالورشات الصغيرة، ومدارسنا الابتدائية الفلاحية تهيء للتعلم الفلاحـــي بحيث تكون في متناولها حدائق واسعة تتعهد بالمشاتل، وحظائر الدواجن، ومـــنحلات، وهكذا ستكون لهم مداخيلهم الخاصة التي تسمح لهم بتكوين "تعاونيات مدرســـية"، وتقـــوم فـــي نفس الوقت بالتربية على التعاون والاحتياط، وهذا بطبيعة الحـــال، لا يمنع عناصر تتميز بالموهبة من النفاذ بعيدا، لاستكمال تعليمها العمومي خـــارج هـــذا الإطـــار، ليصبحوا معلمين مثلا بعد قضاء ثلاث سنوات في الشعبة العاديـــة بالـــرباط. أمـــا فيما يتعلق بالتعلم، فإنه يأخذ أشكالا متعددة، منها مهن الفن الأهلي الذي ظل نشيطا في المغرب ووضعت تحت مراقبته مصلحة خاصة، ترتبط بـــالإدارة العامـــة للتعلـــيم العمومي، التي يعتبر تجنيد المعلمين وتكوينهم على وجه التحديد، أحد همومها.

فـــي بعـــض المـــدن، نجد المؤسسات الصناعية والتي يبدو أنها تعلن عن تأســـيس غـــرف مهنـــية تهتم بتعلم المهن الأوربية وفق تنظيم ممنهج وبعلاقة مع "مصـــلحة الـــتعلم" كالبـــناء والنجارة والحدادة... وأخيرا، تعمل في المدن الرئيسية وتـــتطور بســـرعة كبـــيرة، مدارس مهنية حقيقية ومتخصصة، سواء في مهن الفن الأهلي أو المهن الأوربية كالبناء والتجهيز.

أمـــا بالنســـبة لتعلـــيم الفتـــيات المسلمات، والذي يتطور بسهولة أكثر مما نتصـــور، فهو بصراحة ما زال يدويا مثله مثل تعلم الذكور، فالتلميذات يقضين كل أوقاتهـــن فـــي تعلم الأعمال المنزلية، وهذه التربية، في المغرب تدول حول أعمال الطـــرز وصـــناعة زرابي مطابقة للتقاليد الجهوية، وفيما يتعلق بالتأهيل المهني في مـــدارس الحمايـــة فإننا نرى على أنه لم يكن مهملا، غير أنه، لا يوجد في المغرب حرفـــيون وفلاحون فقط، وأن تعليمنا إذا اقتصر على هذا الأمر فلن يؤدي إلا جزءا من مهمته.

لقد كررنا مرارا، أن المجتمع المغربي – كما هو بالنسبة لجميع المجتمعات المسلمة – ينادي بالمساواة، وهذا لايمنع وجود عائلات من البورجوازية الكبرى – خارج هذه المجموعات الإقطاعية – كما يوجد تجار كبار ذوي ثروات هامة ذات أسس متينة، وموظفي المخزن وقضاته وقواد القبائل ... ولن نقنع هؤلاء الأعيان أبدا، أن مستقبل أبنائهم في العمل اليدوي، فكان لابد من التفكير إذن، في خلق نوع من التعليم يناسب هذه النخبة الاجتماعية، وهو ما تمثله مدارس أبناء الأعيان المقامة في المدن الرئيسية، كما تمثله المدارس العليا الإسلامية في فاس والرباط وتطابق هذه المدارس بشكل تقريبي ما نسميها في فرنسا بالإعداديات الصغيرة (Les petits Collèges) أو الأقسام الابتدائية في الثانويات، مع احتفاظها بخصوصياتها، مدارس الأعيان هذه يجد التعليم تتويجه فيها – بالنسبة لقسم من تلامذتها– في دروس تطبيقية ودروس في التجارة.

أما بالنسبة للمدارس العليا الإسلامية والتي كانت تسمى إلى غاية 1921 إعداديات إسلامية (Collèges Musulmans) تتضمن سلكا دراسيا مدته العادية ست سنوات، وتتوزع تقريبا بصفة متعادلة بين العلوم الإسلامية والعلوم الحديثة، فهي في نفس الوقت، مركز للثقافة الإسلامية، والانجذاب الفرنسي الذي يزداد إشعاعه يوما عن يوم، وقد بذلنا مجهودات عظيمة همت حتى التنظيم المادي والتزيين، لنخلق فيها مناخا إسلاميا، حتى لا يجد التلاميذ أنفسهم مغربين، وحتى يستطيعوا الإفلات من عدم التوازن الذي يتولد عن الانتقالات الفجائية جدا.

إن تعليم النخبة هو قبل كل شي – رغم ما يسجل في برامجه وفي بعض فروعه من مبادئ واسعة إلى حد ما في المحاسبة التجارية والحقوق والتنظيم الإداري – أداة للثقافة العامة ويتجنب الانخراط مباشرة في اتجاهات تطبيقية. هلا يظهر ضروريا كذلك في 1921 – يعني بالنسبة للفئة الأولى من المتخرجين – أن نتنبأ وبدرجة عالية بالتعليم الذي يهم الأهالي ؟ في الوقت الذي ما زال في مراحله الأولى فقط ، لكنه يعد مسبقا بأن يكون مهما جدا.

إن هـــذا التعلــيم العالي الفرنسي – الإسلامي، الذي مركزه معهد الدراسات العلــيا المغربـــية في الرباط، بعد تحديثه وبطريقة حذرة، سيقوم بنشر ما قامت به الجامعـــات المغربية من جليل الأعمال، أي أن هذا التعليم يقترح إعطاء الطلبة ثقافة إســـلامية والتي بفضل مناهجها التربوية العالية ستكون على الأقل متساوية مع تلك التـــي يتوفر عليها المتخرجون من جامعة القرويين، وفي نفس الوقت تكوين عقلهم وإعطائهم مبادئ أولية في الأبحاث الشخصية وإلهامهم ذوق الدقة والمنطق الحقيقي، ومـــن تـــم سيتغير شيئا فشيئا ويتعصرن – بالمعنى الحقيقي للكلمة – تفكير الطبقة العليا المغربية، التي يجب الاعتماد عليها، ومن تم أيضا سيتم تهييء الأطر الإدارية والقضـــائية والاقتصـــادية التي ستفهم جيدا نوايا الدولة الحامية، والتي ستقيم علاقة ثمينة بينها وبين سكان المغرب.

هـــذه هي الحلول التي جيء بها للمشكل المدرسي المغربي لحد الآن، والتي يمكنها على العموم أن تؤدي إلى المعطيات التالية:

- تـــزويد الأهالي بالوسائل التي تمكنهم من الاستمرار في العيش – في مناخ عالم عصـــري – وتطويـــر نشـــاطهم، وتـــزويده بالقواعد التي ستمكنهم من مردود ضروري، كل هذا مع المحافظة على أفكارهم وعاداتهم بالطرق التي تلائمهم.
- نحيي دون أن نجتث ونضيء دون أن نغرب، ونترك عندهم الانطباع أننا نريد لهم الخير على الأقل كما نريده لأنفسنا.

أما بالنسبة لليهود المغاربة، فالمشكل المدرسي يطرح لغايات أخرى. فالمدرسة، قبل كـــل شـــي يجب أن تساهم في إنقاذهم من البؤس الجسدي والفكري والذي فرضته علـــيهم قـــرون من العبودية، وإصلاح كرامتهم بدون تفخيم كبريائهم، ودون إثارة شهياتهم، وتنويع أساليب نشاطهم من أجل الصالح العام.

إن هـــذه المهمة الصعبة، اضطلعت بها الرابطة اليهودية العالمية مدة زمنية طويلـــة قـــبل نظـــام الحماية الفرنسية، وسيكون من المجحف كثيرا نسيان النشاط المذهل الذي برهنت عليه هذه المدارس بالمغرب، والتي تتوفر على إقامة جيدة إلى

حد ما، لكنها نشيطة ومكتظة ومحرومة مستخدمين ماهرين ومخلصين. وقد غيرت هـذه المدارس بالفعل الساكنة اليهودية في المدن واستطاعت أن تمارس تأثيرها بها. والـيوم تـتجه الرابطة اليهودية لمد يدها للحماية حيث ستذهب بمجهودها إلى جهة أخرى، بينما ستمنحها مهمة إكمال وتوسيع عملها.

وهـذا الاهتمام نفسه يعتبر ساحقا، لأنه إذا بدأ المسلمون يأتون إلينا دون أن نترجاهم كثيرا، فإن اليهود يتجمهرون حول المدارس التي فتحناها لهم، لأننا لا نفي بالطلـب ولأنه رغم السرعة التي نمشي بها فإننا دائما متجاوزون، ولكي نخلق هذه الهـبة الشـعبية بأقل ما يمكن من العوائق، ولا تؤدي إلى واحدة من هذه الأزمات الاجتماعـية التي نتوفر منها على أمثلة كثيرة، فالمدارس اليهودية على عهد الحماية تعطي لنفسها اتجاهات عملية أكثر فأكثر وذات تنوع أكبر على الخصوص.

وإلى جانب التعليم العمومي، فالمدارس اليهودية تعطي – حسب الجهات – حـيزا كبيرا للتعليم التجاري والتربية اليدوية وحتى الزراعة التطبيقية، بل إن بعضا مـنها يتجه نحو التحول إلى مدارس مهنية حقيقية، يتخرج منها على وجه الاحتمال عمال مهرة، أما مدارس البنات فكلها مدارس للتدبير المنزلي.

وفيما يتعلق بالساكنة المدرسية الأوربية فإنها لا تقل اكتساحا في المدن كما فـي البوادي، حيث تتعدد مراكز الاستيطان أكثر فأكثر. لم نكن قادرين على التمييز بيـن الفرنسـيين المكتملين والذين هم في الطريق نحو الاكتمال، لقد ظهر ممكنا بل مـرغوبا فـيه أن نعهد للمدرسة بمهمة امتصاص مختلف العناصر الأوربية – التي جـاءت للمغـرب طلبا للزرق – لثقافتنا وعاداتنا. حيث تقرب واشجة لا جدال فيها بالطـبع، مـن تصوراتنا وأذواقنا، بتعبير آخر، فبينما باشرنا تجاه المسلمين واليهود مهمـة التدجين والتكييف، ربطنا المشكل المدرسي الأوربي عمدا، باتجاه الاستيعاب مـع مـراعاة الـتعديلات المحلية الخفيفة، إنه المقياس المدرسي الفرنسي، بمناهجه وبرامجه الرسمية التي وضعناها رهن إشارة كل الأوربيين في المغرب.

إن التعلـيم الابتدائي بطبيعة الحال يعتبر الأكثر تمثيلية، فالبراريك لا تزال تجاور البنايات المبنية بالحجر لأن عملية الحشد سارت بصفة أسرع من البناء، لكن وبصفة عامة، فهيئة المدارس الابتدائية وتنظيمها يتخذان مظهرا عصريا. أما التعليم المهنـــي فتمثله مدارس التدبير المنزلي ومدارس الذكور المهنية والمدرسة الصناعية والـتجارية بـــالدار البيضـــاء التي تعرف تقدما سريعا، وهي منذ الآن تهيئ بعض تلامذتها اللامعين لمباراة الدخول إلى "المدرسة المركزية".

وفـيما يخـص التعلـيم الثانوي، فقد أعدت له ثانويات وإعداديات للذكور في الدار البيضـــاء والـرباط ووجـدة وطنجة، وإعداديات للبنات في نفس المدن، والدروس الـثانوية المختلطة بمكناس وفاس، كما تجرى امتحانات البكالوريا في الرباط سنويا في دورتين ويصل عدد المترشحين حوالي الثمانين كل سنة.

إن الاتصـــالات مع الجزائر لن تكون – على الأقل لبعض الوقت – وبشكل ملمــوس أســهل مــنها مع فرنسا، ومن المؤكد أن تعليما عاليا في الآداب والعلوم والقـــانون والطـــب المقـــام فــي الرباط مثلا يخدم الكثير من العائلات، التي أصبح المغرب بالنسبة لها وطنا صغيرا (Pepetite partie).

بـــالفعل تـــم تنظيم دروس وتداريب – ذات صبغة تنظيمية أساس – لفائدة الشـــباب الذيـــن يهيئون ليسانس في الآداب والعلوم أو القانون لكن إلى هنا، ولغاية إشــعار آخـــر، سينحصر المشروع . إن المغرب الآن يتخلى عن قصد عن إعطاء نفســـه تعلـيما عاليا مشابها للتعليم في فرنسا وأنه، بمعنى آخر، يريد استثمار حياته الثقافية في اتجاهات أخرى.

ظهـــر مناســـبا، عـــوض كليات واهنة، حيث يهيء بعض الطلبة بلا مبالاة وبحزن، امتحانات تتطلب جهدا فرديا كبيرا، أكثر من جو ملائم، تخصيص، موارد التعلـيم العالـــي الأساســية لمـــواد ذات طبيعة محلية (لغة عربية، لغة أمازيغية، جغرافيا، تاريخ، إثنوغرافيا...) من جهة ومن جهة أخرى إعطاء الأسبقية للعلم على التعلم بمعناه المحدد.

إنهـــا إذن وقبل كل شي، هيئات البحث التي يجب أن نرى في المعهد العالي للدراســـات المغربـــية والمعهد العلمي الشريف التي لها مراكزها بالرباط. لقد ابتلع معهـــد الدراســـات العلـــيا المغربـــية، المدرسة العليا القديمة للغة العربية واللهجات الأمازيغـــية الموجـــودة بالرباط ويهيء أيضا لنيل الشهادات والدبلومات في العربية والأمازيغية لكن ومنذ الآن، أصبحت مهمته الأساسية تتحدد في الأبحاث حول البلاد وسكانها وهكذا، فقد أصبح أساتذته "مديري دراسات" مكلفين أساسا بتوجيه الأبحاث، وانضـــاف إلـــى الأبحـــاث ذات الطبيعة اللسانية الصرفة "الدبلوم العالي للدراسات المغربية" حيث كان الاختبار الأساسي، يرتكز على عمل علمي حقيقي، أي نوع من الأطـــروحات الصـــغيرة، تســـتند بـــدون تميـــيز علـــى قضايا تاريخية وجغرافية وإثنوغرافـــية ... تتعلق بالمغرب. فضلا عن ذلك، فمعهد الدراسات العليا المغربية، لا يجمـــع الأساتذة والطلبة فقط، بل حتى الهواة البسيطون الذين يشكلون في المدن المغربـــية الرئيســـية لجـــان محلية، كما يعقد جلسات شهرية وينظم مؤتمرا سنويا، ويصـــدر نشـــرة فصـــلية تحت عنوان "هسبريس"، وبموازاة معهد الدراسات العليا المغربية، فقد جمع "المعهد العلمي الشريف" المؤسس في مارس 1921 أبحاث العلوم الطبيعـــية المتعلقة بالمغرب، كعلم الحيوان وعلم النبات والجيولوجيا وعلم التغيرات والظواهـــر الجويـــة، وعلـــم المحـــيطات والـــبحار وعلم الفلك والفيزياء والكيمياء التطبيقـــية، بالإضـــافة إلى الدراسات التطبيقية التي تنجم بالأساس عن علم التشريح المقـــارن والأنثروبولوجـــيا وعلـــم الطفيلـــيات وعلم أمراض النبات وعلم المعادن والهيدرولوجـــيا والجغرافـــية الطبيعية، وبصفة عامة، كل التخصصات الضرورية لاستكشاف المغرب الطبيعي. هذه المؤسسة أيضا، مركز بجهاز موجه لإثارة اهتمام جمهور أوسع، أي جمهور الهاوين والمحترفين الذين ينضوون تحت "جمعية العلوم الطبيعـــية المغربية" وليس العاملين في مختبراته فقط. إن نشاط هذا المعهد بتحريك من مديره الدكتور ليوفيل جدير بالملاحظة، بما أنه الآن في مهمته الثالثة، وكراسته التقنـــية الســـابعة. وبتعاون كل من المعهد العلمي الشريف ومؤسسة العلوم الطبيعية

المغربـــية لإصدار "الوثائق العلمية للحماية"، ولإغناء مجموعة من الكتب الموجهة نحو تكوين " متحف الإمبراطورية الشريفة"، ويتوفر معهد الدراسات العليا المغربية والمعهــد العلمي الشريف على خزانة مهمة جدا ومتخصصة، تنمو بسرعة وتصبح منذ إقامتها في البناية الواسعة التي خصصت لها هي الخزانة العامة للحماية.

تلــك هـــي فـــي خطوطها العريضة، اتجاهات التعليم العمومي في المغرب وتنظـــيمه، ليس بالإحصاءات أبدا يمكننا أن تأخذ فكرة صحيحة عن هذا الجزء من العمـــل الفرنســـي، لأنـــنا في هذا الصدد، ما زلنا في خضم الورش، وستتضاعف أرقامـــنا الإحصـــائية بين ليلة وضحاها إذا استطعنا في نفس هذا الوقت القصير أن نضاعف أعداد أقسامنا ومعلمينا.

إنهـــا دفعـــة حقيقـــية تلك التي توجه عملنا المدرسي. وإذا حاولنا أن نتذمر فسنكون كمن يبحث عن عروس خارقة الجمال.

هذه ترجمة نص حول التعليم صدر لجورج هاردي ضمن كتاب :
La Renaissance du Maroc Dix ans de Protectorat
1912-1922
Résident Général de La Republique Francaise au Maroc
Rabat PP 198-207

